شجرة الدر وتوران شاه

امرأةٌ عظيمةٌ هي.. تحدَّت الظروف الصعبة بوفاة زوجها ووجود المحتل الغربي داخل البلاد.. وقفت وصمدت وحاربت وانتصرت.. وسلَّمت السلطة بعد ذلك لابن زوجها، لينقلب عليها ويتخذها ندًا له.

نتحدث عن عصمة الدين.. "أم خليل.. الملكة العظيمة شجرة الدر، وابن زوجها توران شاه.

شجرة الدر كانت جاريةً من أصل تركي أو خوارزمي، وهناك آراء أخرى تقول إنها أرمينية اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب قبل أن يكون سلطانًا، ورافقته في فترة اعتقاله في الكرك مع مملوكٍ له اسمه ركن الدين بيبرس، وأنجبت ولدًا اسمه خليل، لقِّب بالملك المنصور، وبعد ما خرج الملك الصالح من السجن ذهبت معه إلى مصر، وتزوجا هناك، وبعد أن أصبح سلطان مصر، أصبحت تنوب عنه في الحكم عندما يكون خارج البلاد.

في أبريل عام 1249م، كان الملك الصالح أيوب في الشام يحارب الملوك الأيوبيين الذين ينافسوه على الحكم، ووصلته أخبار أن ملك فرنسا لويس التاسع في قبرص، وفي طريقه لمصر على رأس حملة صليبية كبيرة، حتى يغزوها، ذهب الملك الصالح سريعًا إلى دمياط على البر الشرقي للفرع الرئيسي للنيل حتى يجهز الدفاعات لو هجم الصليبيون، وبالفعل هجم الصليبيون في شهر يونيو، نزل فرسان وعساكر الحملة الصليبية السابعة من المراكب على بر دمياط ونصبوا خيمةً حمراء للملك لويس، وانسحبت العربات التي كان قد وضعها الملك الصالح في دمياط للدفاع عنها، فاحتلها الصليبيون بسهولة وهي خالية من سكانها الذين تركوها عندما رأوا هروب العربات، فحزن الملك الصالح وأعدم عددًا من راكبي العربات بسبب جبنهم وخروجهم

عن أوامره، انتقل الصالح لمكانٍ آمن في المنصورة، وفي منتصف شهر نوفمبر توفي الملك الصالح بعد أن حكم مصر عشر سنوات.

إنها لحظة حرجة جدًا من تاريخ مصر، حينها هبَّت الملكة شجر الدر واستدعت قائد الجيش المصري الأمير فخر الدين يوسف، ورئيس القصر السلطاني الطواشي جمال الدين محسن، وقالت لهم إن الملك الصالح قد مات، وأن مصر الآن في موقف صعب من غير حاكم، وهناك غزو خارجي متجمع في دمياط، اتفق الثلاثة على أن يخفوا الخبر حتى لا تضعف معنويات الجنود والشعب ويتشجع الصليبيون، وفي السر ومن دون علم أحد، نقلت شجر الدر جثمان الملك الصالح في مركب على القاهرة، ووضعته في قلعة جزيرة الروضة، ومع أن الملك الصالح لم يوصِ قبل أن يموت بمن يمسك الحكم من بعده، فقد بعثت شجر الدر زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاي الجمدار، على حصن كيفا، حتى يستدعي توران شاه ابن الملك الصالح أيوب حتى يحكم مصر بدلًا من أبيه المتوفي، وقبل أن يتوفي الصالح أيوب كان قد أعطى صحفًا على بياض لشجرة الدر حتى تستخدمها، واستخدمتها هي والأمير فخر الدين، في إصدار الأوامر السلطانية، وقالوا إن السلطان مريض ولا يستطيع مقابلة أحد، وكانوا يدخلون الطعام للغرفة التي كان من المفترض أن يكون نائمًا فيها، حتى لا يشك أحد، وأصدروا أمرًا سلطانيًّا بتجديد العهد للسلطان الصالح أيوب وتنصيب ابنه توران شاه، ولي عهد للسلطنة المصرية، وحلَّفوا الأمراء والعساكر.

وصلت أخبار وفاة الملك الصالح للصليبيين في دمياط عن طريق جواسيسهم، وفي نفس الوقت وصلت إلى دمياط إمدادات مع ألفونس دو بويتي، أخ الملك لويس، فتشجع الصليبيون وقرروا الخروج من دمياط والتوجه للقاهرة، واستطاعت قوات من الفرسان الصليبيين

بقيادة روبرت دارتوا شقيق الملك لويس، اجتياز قناة أشموم عن طريق مخاضة عرفوها عن طريق أحد قواد العربات، فهجموا فجأة على المعسكر المصري في جديلة على بعد حوالي ثلاثة كليو مترات من المنصورة، فقتل الأمير فخر الدين يوسف، وهو خارج من الحمام على صوت الضجة والصريخ، فهربت العساكر التي بغتها الهجوم غير المتوقع وذهبوا إلى المنصورة.

عرض الأمير ركن الدين بيبرس على شجر الدر، الحاكمة الفعلية لمصر في هذا الوقت، خطةً وضعها، يدخل فيها الفرسان الصليبيون المندفعون نحو المنصورة في مصيدة، فوافقت شجر الدر على الخطة، ونظَّم بيبرس وفارس الدين أقطاي الذي أصبح القائد العام للجيوش المصرية صفوف العساكر المنسحبين من جديلة داخل المنصورة، وطلب منهم ومن السكان التزام السكون التام، حتى يظن الصليبيون المهاجمون أن المدينة خالية مثل ما حصل في دمياط، وفعلًا وقع الفرسان الصليبيون في الفخ واندفعوا إلى داخل المنصورة واتجهوا نحو القصر السلطاني حتى يحتلوه، فخرجت لهم المماليك البحرية والمماليك الجمدارية فجأة وهاجموهم من كل ناحية بالسيوف والسهام، وخرج سكان المنصورة والمتطوعون وهم يرتدون خوذًا من النحاس الأبيض بدل خوذات العساكر، وضربوهم بكل ما أوتوا من قوة، وحاصر المماليك القوات الصليبية المهاجمة، وأغلقوا الشوارع والحواري، وبقي الصليبيون غير قادرين على الهروب، ولم يبقَ أمامهم سوى الموت على الأرض، أو أن يرموا نفسهم في نهر النيل ويغرقوا فيه، وأخبأ روبرت دارتوا، شقيق لويس، داخل بيت، لكن الناس وجدوه وقتلوه، وانتهت المعركة بهزيمة الصليبيين هزيمةً منكرةً في حواري المنصورة، وقتل منهم عدد كبير، لدرجة أنه لم ينج من فرسان المعبد، إلا واحدًا أو اثنين.

كان هذا أول ظهور للماليك البحرية داخل مصر كمقاتلين يدافعون عنها، وفي تلك اللحظة تحوَّل تاريخ مصر والمنطقة، عن طريق شجر الدر ورجالٍ دخلوا تاريخ مصر والعالم مثل الظاهر بيبرس وعز الدين أيبك وقلاوون الألفي، وغيرهم كثيرون.

وصل توران شاه إلى المنصورة بعد هذا الهجوم الأخير بعشرة أيام في السابع عشر من شهر ذي القعدة للعام 667 من الهجرة، وتسلَّم السلطان الشاب مقاليد الحكم، وأعلن رسميًّا وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب وولاية توران شاه حكم مصر والشام، بدأ توران شاه في التخطيط لهجومٍ جديدٍ على الصليبيين وكانت حالة الجيش الصليبي قد ساءت، وبدأ بالانسحاب ناحية دمياط، بينما ارتفعت معنويات الجيش المصري لعنان السماء للانتصارات السابقة، وخاصة انتصار المنصورة، ولوصول توران شاه في الوقت المناسب.

وبعد خطة بارعة وضعها توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، استطاع الجيش المصري أن يلتقي مرةً أخرى مع الصليبيين عند مدينة فارسكور في أوائل شهر الله المحرم للعام التالي، بعد أقل من شهرين من موقعة المنصورة الكبيرة، ودارت هناك معركة هائلة تحطم فيها الجيش الصليبي تمامًا، بل وأسر الملك لويس التاسع نفسه، ووقع جيشه بكامله ما بين قتيلٍ وأسير، وسيق الملك لويس مكبَّلًا بالأغلال إلى المنصورة، حيث حبس في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان، ووضعت شروط قاسية على الملك لويس التاسع ليفتدي نفسه من الأسر، وكان من ضمنها أن يفتدي نفسه بثمانمائة ألف دينار من الذهب يدفع نصفها حالًا ونصفها مستقبلًا، على أن يحتفظ توران شاه بالأسرى الصليبيين، حتى يتم دفع بقية الفدية، بالإضافة إلى إطلاق سراح الأسرى المسلمين وتسليم دمياط للمسلمين، وهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات.

لقد كان انتصارًا باهرًا بكل المقاييس، وتم بالفعل جمع نصف الفدية بصعوبة، وأطلق سراح الملك لويس التاسع إلى ولاية عكا، والتي كانت إمارةً صليبيةً في ذلك الوقت.

بعد هذا النصر تنكَّر السلطان الجديد لشجر الدر، وبدلًا من أن يحفظ لها جميلها، بعث يتهددها ويطالبها بمال أبيه وإرثه منه، فكانت تجيبه بأنها أنفقته في شؤون الحرب وتدبير أمور الدولة، فلما اشتد عليها، شعرت بالخوف منه وذهبت إلى القدس خوفًا من غدر السلطان وانتقامه منها.

ولم يكتف توران شاه بذلك، بل امتد حنقه وغيظه ليشمل أمراء المماليك أصحاب الفضل الأول في تحقيق النصر العظيم وإلحاق الهزيمة بالحملة الصليبية السابعة، وبدأ يفكر في التخلص منهم.. ببد أن نفس التفكير كان يراود المماليك أيضًا.

في صباح يوم السابع والعشرين من شهر الله المحرم لنفس عام الانتصار على الصليبيين، كان السلطان توران شاه يتناول طعام الإفطار في خيمته السلطانية، فهجم عليه مجموعة من المماليك بعد شكوكهم بنواياه تجاههم ومنهم بيبرس البندقداري، وقلاوون الصالحي، وأقطاي الجمدار، وضربوه بالسيوف، فهرب منهم لكشكٍ خشبي فأحرقوه عليه، فهرب منه ورمى نفسه بالنيل فضربوه بالسهام والنبال، فقتل جريحًا غريقًا حريقًا، وبمقتله سقطت دولة الأيوبيين بمصر، بوفاة آخر سلاطينها وقامت دولة المماليك.

وجد المماليك أنفسهم في وضعٍ جديد، فهم اليوم أصحاب الكلمة الأولى في البلاد ومقاليد الأمور في أيديهم، ولم يعودوا أداة في يد من يستخدمهم لتحقيق مصلحة أو نيل هدف، وعليهم أن يختاروا سلطانًا

للبلاد، وبدلًا من أن يختاروا واحدًا منهم لتولي شؤون البلاد، اختاروا شجر الدر لتولي هذا المنصب الرفيع.

أخذت البيعة للسلطانة الجديدة ونقش اسمها على العملة بالمستعصمية الصالحية ملكة المسلمين، والدة خليل أمير المؤمنين.

ما إن جلست شجر الدر على العرش حتى قبضت على زمام الأمور وأحكمت إدارة شؤون البلاد، وكان أول عمل اهتمت به هو تصفية الوجود الصليبي في البلاد، غير أن الظروف لم تكن مواتية لأن تستمر في الحكم طويلًا، فعلى الرغم مما أبدته من مهارة وحزم في إدارة شؤون الدولة وتقربها إلى العامة وإغداقها الأموال والإقطاعات على كبار الأمراء، فقد لقيت معارضةً شديدةً داخل البلاد وخارجها، وخرج المصريون في تظاهرات غاضبة تستنكر جلوس امرأة على عرش البلاد، وعارض العلماءُ ولاية المرأة الحكم، وقاد المعارضة الشيخ الجليل العز بن عبد السلام، لمخالفة جلوسها على العرش للشرع، بعد ذهاب الولاية للمرأة.

في الوقت نفسه ثارت ثائرة الأيوبيين في الشام لمقتل توران شاه واغتصاب المماليك للحكم بجلوس شجر الدر على سدة الحكم، ورفضت الخلافة العباسية في بغداد أن تقر صنيع المماليك، فكتب الخليفة المستعصم إليهم وقال جملته الشهيرة: "إن كانت الرجال قد عُدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسيِّر إليكم رجلًا".

لم تجد شجر الدر إزاء هذه المعارضة الشديدة بُدًا من التنازل عن العرش للأمير عز الدين أيبك، أتابك العسكر، الذي تزوجته وتلقَّب باسم الملك المعز، وكانت المدة التي قضتها على عرش البلاد ثمانين يومًا فقط، وعلى الرغم من قلة المدة، فقد سطرت اسمها بحروف من ذهب في صفحات التاريخ المصري والإسلامي.

انقلب أيبك على شجرة الدر بعدما أحكم قبضته على الحكم في البلاد، وتخلص من منافسيه في الداخل ومناوئيه من الأيوبيين في الخارج، وتمرس بإدارة شئون البلاد، وبدأ في اتخاذ خطوات للزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، غضبت شجر الدر لذلك وأسرعت في تدبير مؤامرتها للتخلص من أيبك، فأرسلت إليه تسترضيه وتتلطف معه وتطلب عفوه، فانخدع لحيلتها واستجاب لدعوتها وذهب إلى القلعة، حيث لقي حتفه هناك على يد عبيد استأجرتهم شجرة الدر لتلك المهمة.

أشاعت شجر الدر أن المعز لدين الله أيبك قد مات فجأةً بالليل، ولكن مماليك أيبك لم يصدقوها فقبضوا عليها وحملوها إلى امرأة عز الدين أيبك التي أمرت جواريها بقتلها بعد أيام قليلة، فقاموا بضربها بالقباقيب على رأسها، وألقوا بها من فوق سور القلعة، ظلَّت جثة الملكة شجرة الدر على الطريق عارية ولم تدفن إلا بعد عدة أيام من وفاتها، لتكون نهاية درامية جديرة بملكة عظيمة جلست على سدة الحكم في البلاد، في واحدةٍ من أحرج فترات التاريخ المصري.